مستوى التعليم العربي في الميزان

بقلم الأستاذ أحمد الأخضر

مدير المكتب الجامعي للبحث العلمي
(الرباط)

القسم الاول

تمهيد :

كثر الكلام عن موضوع انخفاض المستوى في التعليم العربي ، وأبديت فيه الآراء العديدة ، منها ماهو نتيجة ملاحظات واقعية او نظريات عامة ، ومنها ما هو صادر عن عواطف صادقة او افكار سديدة ، الا ان الباحث المتعمق في قضية انخفاض مستوى تعليمنا يجد أن كل هذه الآراء ، مهما كان مبعثها ، صحيحة لا ينبغي نبذها كلها او اعتبار بعضها دون بعض . وبعبارة اخرى كل ما قيل في هذا الموضوع جائز بصفة عامة وكل راي فيه مبني على أساس له نصيب من الصحة ، اذ كل قول من هذه الاقوال يدل على وجه من وجوه الانخفاض . وهذه الآراء المختلفة اذا دلت على تعدد الوجوه فانها تشعرنا بأن الموضوع خطير وانه لايجدر بنا ان نقلل من اهميته ونستصغره ، بل يجب أن نقتنع بعكس ذلك وان نقول : بما اننا لم نصل بعد الى حل المشكل فذاك لانه مشكل معقد عويص وان لم يكن كذلك في حد ذاته فهو كذلك في مكوناته . ومكونات التعليم كثيرة بطبيعة الحال، منها المباني والاثاث ، والسن والعدد والبعد والقرب ، والصحة والمرض ، والفقر والغنى ، والتفتيش والمراقبة، واوقات العمل وفراغها ، والتجهيز حسنه وسيئه ، والميزانية توفرها وقلتها ، وتحسين وظيفة المعلم وعدم تحسينها ، ووجود اطر التلعيم وعدمها ، وحصول التلاميذ على الكتب والادوات التعليمية وعدم حصولهم عليها ، الى غير ذلك من الشروط الضرورية العامة العادية لكل تعليم كيفما كان نوعه وبلاده ولغته . واذا اختل جزء من هذه الاجزاء اثر ذلك الاختلال على صحة التعليم وكأنه كائن حي هو الآخر ، كلما اشتكى منه عضو تألم له الجسم بكامله . كل هذا نسبيا كما هو الشأن في جميع الامور .

ولكنني لا اظن ان جميع مدارسنا ناقصة في هذه الميادين ، ولا اظن أن العالم العربي يفتقر كله الى هذه الحاجيات . ولا اعتقد كذلك أن التعليم العربي اذا اشتكى من انخفاض المستوى فذلك لان جزءا من هذه الاجزاء المذكورة نقصه اذ هناك مدارس في بلدان عربية تتوفر فيها الشروط السابقة وتخرج اجيالا تعتبرها صالحة من معلمين وأساتذة واطباء ومهندسين . ومع ذلك فان الاجماع ما زال على ان المتكون بالعربية ناقص بالنسبة الى المتكون بلغة من لغات الامم الراقية . هذا هو الامر الواقع العام . وفي كل امر طبيعة الحال تأثيرات نسبي، منه أن المتكونين بالعربية اذا اكتسبوا لغة اجنبية أمكنهم اتمام تكوينهم بها و سبحوا في مستوى لابأس به .

بقي لنا النظر فى رمي اللغة العربية بالنقص . وفعلا فقد رماها بالنقص كثير ممن لهم تكون أجنبي ، ورماها بالنقص كثير ممن لهم تكوين عربي . فهل هذا صحيح ؟ ان الجرائد والمجلات تزخر بمقالات كثيرة فى هذا الموضوع ، تناولتها أقلام من يقولون بأن العربية بخير وأقلام من ينكرون هذا الراي ويزعمون بأن العربية ليست بخير . اما نحن فقولنا هو ما يلي : صحة لغتنا فى بدنا وذلك نسبيا بطبيعة الحال لان زمام الامر فى هذا الميدان منه قسم نتصرف فيه ومنه قسم ليس فى ايدينا ولا سلطة لنا عليه لان اللغة ، وهي كائن حي ، لها ناموسها الخاص فى حد ذاتها تخضعله — وله وحده — فى تطورها البدني ، وفى نفس الوقت تتغذى بما يغذيها به اهلها من مواد حسية وشعورية وفكرية وعقلية وروحانية الخ.. فمثلها كمثل شجرة تنمو طبقا لنواميس احيائية وطبقا لما يتوفر لها من مواد غذائية . ولنترك هذه المسألة مؤقتا لان صلتها بموضوعنا صلة غير مباشرة .. نسبيا بطبيعة الحال ! وسنعود اليها من بعد ان شاء الله !

لا يتعلم أبناؤنا بالعربية ما يتعلمونه باللغة الاجنبية

نقول — وصلب موضوعنا هو انخفاض المستوى — ان المستوى يحدد بالنسبة الى درجة معينة. وهذه الدرجة هي ، فى الوقت الراهن درجة مستوى التعليم عند الامم الراقية التي نقتدي بها ونسعى فى الالتحاق بركب حضارتها . وبما أن التكوين هو حصيلة معلومات ما ، فى ميدان ما ، يكتسبها الشخص بواسطة تعليم ما ، بقي ان المستوى فى هذا التكوين هو تلك الدرجة التي يجب على الشخص أن يحصل عليها بواسطة ذلك التعليم . فاذا كان التعليم ناقصا كان التكوين ناقصا واذا كان التعليم فى المستوى كان التكوين كذلك فى المستوى . وقولنا بأن المعلمين غير اكفاء معناه أن تكوينهم ناقص واذا كان تكوينهم ناقصا فذلك اما من ناحية المعلومات واما من ناحية التلقين . ولنترك ناحية التلقين (البيداغوجية) ولنسلط الاضواء على ناحية المعلومات .

1) الحيوانات :	الكتاب الاجنبي :	112
2) النباتات :	»	95 »
3) جسم الانسان :	»	50 »
4) المحسوسات :	»	370 »
5) الاوصاف :	»	262 »
6) الافعال :	»	444 »
المجموع :		1 333

ان وسائل التعليم الاساسية هي اللغة والبرامج والكتاب المدرسي والمعلم . وهذه الوسائل متداخلة تداخلا وثيقا ، الا أن البحث فيها يجد مادته الملموسة السهلة المنال فى الكتاب المدرسي ، لانه مرآة اللغة والبرنامج وحتى المعلم كما سيتضح لنا ذلك فيما بعد .

نقول : يجب أن يكون مضمون الكتاب المدرسي محتويا على نوعين أساسيين من المعلومات : نوع يتصل بمفاهيم العلوم الضرورية المشتركة بين البلدان الراقية ، والتي تلبي حاجة التحاقنا بصف هذه البلدان. ونوع يتصل بمفاهيم قيمنا الوطنية الخاصة التي نريد ان يكون متوفرا عليها مواطننا الصالح . وبناء على هذا ينبغي أن يكون الكتاب الاداة الصالحة لبلوغ هذه الغاية باحتوائه على المقدار العلمي المشترك بين الدول الراقية .

وهذا الكتاب العربي الذي يوجد بين أيدي ابنائنا، والذي يصحبهم دوما على ادراكها من حيث المعارف العلمية ومن حيث القيم الوطنية ، كتابنا هذا الذي به يتكون التلميذ ونمنحه الشهادات باعتبار ما حصل عليه فى ذلك الكتاب من معارف ، ونسميه معلما فيما بعد ، ونعينه فى مدرسة من مدارسنا ليعلم بدوره النشء الصاعد ... هل هو فى المستوى المحدد اعلاه بالنسبة الى المحتوى العلمي عند الامم الراقية ؟

مقارنة المعلومات بين الكتب العربية والكتب الاوروبية :

هاكم الجواب عن هذا السؤال بعد احصاءات عديدة ومتنوعة غايتها مقارنة الكتب الاوروبية الرسمية (فى اسبانيا وفرنسا وايطاليا والمانيا ، وانكلترا) بالكتب العربية كيفما كان بلدها . وما اثبتنا هنا من ارقام يعتبر معدلا بين الكتب الاوروبية وبين الكتب العربية . (ملاحظة : نستسمح القارىء فنغفل عن اسم الكتاب ومؤلفه وبلده :

اسم	— الكتاب العربي :	44	اسما
اسما	— »	22	»
»	— »	11	»
»	— »	106	»
»	— »	94	»
»	— »	250	»
		527	

واليكم مثالا لقائمة الالفاظ المتعلقة بجسم الانسان:

فى الكتاب الفرنسي :

1 — ساعد	avant-bras
2 — فم	bouche
3 — حدبة	bosse
4 — ذراع	bras
5 — ندبة	cicatrice
6 — هدب	cil
7 — قلب	cœur
8 — فخذ	cuisse
9 — شعر	cheveux
10 — لمة	chevelure
11 — جسم	corps
12 — عنق	cou
13 — مرفق	coude
14 — جمجمة	crâne
15 — اصبع	doigt
16 — ظهر	dos
17 — عاتق	épaule
18 — سيما ، وجه	figure
19 — جبهة	front
20 — ركبة	genou
21 — سبابة	index
22 — ساق	jambe
23 — خد	joue
24 — لسان	langue
25 — شفة	lèvre
26 — عضلة	muscle
27 — يد	main
28 — ربلة	mollet
29 — شارب	moustache
30 — انف	nez
31 — اذن	oreille
32 — عظم	os
33 — عين	œil
34 — ظفر	ongle
35 — رجل	pied
36 — ملمح	profil
37 — مقدم الرجل	pointe des pieds
38 — صدر	poitrine
39 — معصم	poignet
40 — سلامى	phalange
41 — هيكل عظمي	squelette
42 — حاجب	sourcil
43 — عقب	talon
44 — راس	tête
45 — وجه	visage
46 — صوت الحلق	voix
47 — بطن	ventre
48 — سن	dent
49 — ذقن	menton

فى الكتاب العربي :

عين ، ناب ، كف ، فم ، ظفر ، عظم ، يد ، اصبع ، وجه ، راس ، قدم .

ملاحظة 1) الكتب الاجنبية المجردة خاصة بنصف السنة التحضيرية وسنة الامومة ، اما الكتب العربية المجردة فهي مقررة فى السنة التحضيرية بكاملها .

2) كثير من المدارس عندنا فى المغرب لا يدرس الطفل فيها الا نصف الحصة ، فيجب اذن اعتبار نسبة التخلف اخطر مما هي عليه فى الحقيقة .

3) اذا اعتبرنا ما سبق فنسبة التخلف بين التلميذ الاوروبي وبين التلميذ العربي الذي يدرس الحصة بكاملها تتعدى 40٪ ؛ اي ان التلميذ العربي لا يعرف الا 40٪ مما يعرفه التلميذ الاوروبي فى نفس المستوى ؛ واليكم نوعا آخر من احصائية لها مدلولها :

اخذنا اربعة كتب فرنسية مقررة فى السنة التحضيرية واربعة كتب عربية من مختلف الاقطار العربية مقررة فى نفس السنة. واخترنا موضوع «القسم» فاننا نجد فى الكتب الفرنسية الكلمات الآتية مشتركة فيما بينها . ونجد فى مقابل الكلمات الفرنسية الكلمات العربية الآتية :

الكتب الفرنسية	الكتب العربية			
	الاول	الثاني	الثالث	الرابع
classe	0	غرفة الدرس	فصل	غرفة الصف
mur	0	جدار	حائط	جدار
plancher	0	0	0	أرض مغطاة بالخشب
plafond	0	0	0	سقف
porte	0	باب	باب	باب
fenêtre	0	شباك	نافذة	نافذة
table	طاولة	0	0	طاولة
banc	0	مقعد	مقعد	مقعد
pupitre	0	0	0	0
chaise	0	كرسي	0	0
bibliothèque	0	0	0	0
gravure	0	0	0	0
image	0	صورة	صورة	مصورة
maître	معلم	معلم	معلم	معلم
tableau noir	0	لوح اسود	سبورة سوداء	لوح اسود
écolier	0	0	0	0
cartable	0	0	0	0
cahier	0	0	0	0
livre	كتاب	0	0	0
ardoise	0	0	0	0
porte-plume	0	0	0	0
crayon	قلم رصاص	0	0	0
règle	مسطرة	0	0	0
plume	0	0	0	0
poêle et tuyau	0	0	0	0

ملاحظة : في كل كتاب عربي الفاظ لا توجد في الكتب العربية الاخرى وهي :

في الكتاب الاول : ورق ، املاء ، تلاوة ، قصة .
في الكتاب الثاني : منبر ، خريطة ، ممسحة ، طباشير .

في الكتاب الثالث : خريطة جغرافية
في الكتاب الرابع : منبر المعلم ، فناء .

مقارنة النصوص :

1) المطالعة

قبل استخلاص النتائج حول هذا الموضوع ينبغي ان نتمم هذه المقارنة بمقارنة النصوص لتكتمل الفكرة وتتضح ، لان المواضيع ، كما قلنا ، متداخلة بعضها مع بعض ولان كل موضوع له اثره في غيره . فقلة المفردات لها اثرها في قيمة النصوص وفي اساليب التعبير وفي الحصيلة التكوينية كما سيتضح ذلك فيما بعد . ودونكم اذن النص الفرنسي في موضوع الضفدع مثلا وهو في مستوى نصف السنة التحضيرية كذلك :

LA GRENOUILLE

Puc était devenu une belle petite grenouille verte qui sautait dans l'herbe ; personne ne l'aurait reconnu. Les gracieuses libellules passaient près du pauvre Puc sans le voir.

Pour se nourrir, il devait maintenant dévorer ses amis les insectes. Le premier jour, il crut mourir asphyxié dans l'étang : il n'avait pas encore l'habitude de vivre dans l'eau ! « Quelle triste existence est la mienne ! se lamentait Puc. Ah ! si la fée Sylvie pouvait me voir ! ».

A ce moment survint un jeune garçon. Avec une épuisette, il captura Puc sans effort. On mit la pauvre grenouille dans un bocal.

Depuis, Puc reste perché tout en haut de sa petite échelle !

واليكم نصا حول الضفدعة في مستوى السنة التحضيرية بكاملها :

— ضفدعة —

ذهب صالح الى حوض ، على حافته ضفادع تنقنق ، فضحك صالح من نقيقها . سمعت ضحكه ضفدعة ، فغاصت في حوضها وتبعتها اخواتها فسكتن .

وهذا نص فرنسي في مستوى السنة التحضيرية :

LE CHAT

Vous ne l'auriez jamais deviné :

Celui qui a bu tout le lait du grand pot blanc, c'est moi, le chat. Je me suis régalé : Tant pis pour vous il ne fallait pas le laisser sur la table de la cuisine.

Ensuite, étendu sur votre beau tapis, j'ai fait un bon somme.

C'est là que vous venez me caresser, me dire que je suis beau, mais en voilà assez ! Je ne suis pas un jouet. Je m'étire et à petits pas, je m'en vais. N'insistez pas, je vous prie, car si je commence à baisser mes oreilles et à découvrir mes dents pointues, pff ! gare à ma griffe : elle vous laissera sur la main une douloureuse marque rouge et, croyez-moi, vous la garderez longtemps !

Je n'aime pas le chien : il est brutal et maladroit. Quand je le vois, mon poil se hérisse et je fais le gros dos, Grr !!

Je voudrais bien croquer le serin qui sautille dans sa cage.

Mais elle est accrochée si haut, si haut ! que l'oiseau jaune ne craint rien ; sûr de lui, il me nargue.

La nuit, le grenier m'appartient. Pendant des heures, je guette la souris qui grignote dans son coin. Je l'entends sans la voir, mais je sais où elle est. Gare, si elle se risque hors de son trou : hop ! je ne la raterai pas !

En hiver, j'ai ma place à la chaleur, sur mon coussin, près du radiateur. Qu'importe le vent ou la neige ! Moi, j'ai chaud, je ronronne. Je m'étire et je bâille en montrant ma langue rêche et rose,

Puis, jusqu'à l'heure de ma tasse de lait, je dors, je dors. Je suis bien !... Je suis le chat !

قطتي

(في مستوى التحضيري)

لمنير قطة لطيفة . منير يقدم لها لبنا في كوب . يقبل منير قطته ؛ قطة منير هي رفيقته في داره ، رسم لها منير صورة بقلمه .

وهذه قطعة اخرى :

— هري —

هري هري . حسن الشعر
وله وجه . مثل النمر
وله عين . مثل الشر
يمشي حولي . حاني الظهر

فـــأداعبـــه . فوق الحجر
وعلى كتفي . وعلى صدري
فاذا لاقـــى . فـــأرا يجري
يعدو حـــالا . خلف الفـــأر

وهذه قطعة أخرى :

قطتـــي

(في مستوى الابتدائي الاول !)

لي قطة جميلة احبها كثيرا . شعرها ناعم وعيناها زرقاوان وانفها صغير . تحرك ذيلها عندما اتمسح بها وأمر يدي على شعرها ؛ فتتطلع الي وتدخل راسها بين ذراعي ؛ سميت قطتي : كوكـــو . فاذا ناديت كوكـــو ! جاءت مسرعة وتمسحت بـــي . واختي آمنـــة تناديها : بش بش ولكن كوكو تحبني أكثر من اختي آمنة .

انا لا اضرب كوكو ولا ازعجها ان كانت نائمـــة ؛ لذلك اجدها في انتظاري بباب المنزل كلما رجعت مـــن المدرسة .

ان قطتي اليفة . ولكنها تدافـــع عن نفسهـــا اذا حصل لها ضرر ، فتخرج مخالبها وتخمش جسم مـــن يعتدي عليها .

انها تجازي الخير بالخير والشر بالشر .

2) دروس الاشياء :

العربي ج 2 والفرنسي ج 1

العيـــن

العين اثمن الحواس . هي نور الانسان به يهتدي لقضاء حاجاته ، وبدون العين تصبح له الدنيا ظلمـــة دامسة . ابدع الخالق القدير العين بحكمـــة فائقـــة ، اجزاؤها دقيقة جدا ، وقد وضعت للمدافعـــة عنهـــا الحواجب والجفون والاهـــداب . حافـــظ على سلامـــة وصحة هذا العضو الثمين بكل الوسائل الممكنـــة . اذا اغتسلت بالصابون فلا تدعه يدخل في عينيك ، لا تمسح عينيك بيد قذرة بل بمنديـــل نظيـــف ولا تدع الذبـــاب والحشرات تستقر عليها ، لا تستعمل ماء او منديـــلا استعمله قبلك آخر منعا للعدوى ، ولا تعرض عينيـــك للنور الشديد ، ولا تقرا في موضع مظلم .

L'ŒIL

Les yeux sont très fragiles, mais ils sont bien protégés. Chaque œil est logé dans un renfoncement des os de la tête appelé orbite.

Devant les yeux, les paupières se ferment au moindre danger et leurs cils arrêtent les poussières. Les deux sourcils empêchent la sueur du front de couler sur les yeux.

Les yeux sont très mobiles. Chaque œil ressemble à une bille blanche sur laquelle on voit de petits vaisseaux sanguins. Sur le devant de l'œil, une peau transparente laisse voir à l'intérieur un anneau coloré, nommé l'iris. Au centre de l'iris, se trouve un petit trou appelé pupille. Par ce trou, on voit le fond de l'œil : il est tout noir. La lumière pénètre dans l'œil par la pupille. Celle-ci s'élargit à l'obscurité et au contraire, se rétrécit quand la lumière est vive.

ملاحظة :

1) يحتوي الجزء الاول على ما يلي : «واعلم يـــا بني» اننا نعرف ما يحيط بنا بواسطة حواسنا الخمس : البصر والسمع والشم والذوق واللمس» .

2) ينقسم الدرس الفرنسي الى قسمين : قســـم للتلاوة وهو الذي ترجمنـــاه وقسم خـــاص بالاسئلـــة والملاحظات والتطبيقات الكل مصور ملون لم نترجمه .

3) الدرس الفرنسي للسنة الثانية من التعليـــم الابتدائي والدرس العربي للسنة الثالثـــة من التعليـــم الابتدائي .

4) عدد المصطلحات في الدرس الفرنسي 14 وفي الدرس العربي 4 .

5) أرجو من القارىء أن يتحقق بنفســه من الفرق العظيم الذي يوجد بين كتابين في دروس الاشياء الاول بالفرنسية والثاني بالعربية .

3) الهندســـة :

المستوى المدروس هو السنة الاولى من الثانوي. الدرس الفرنسي يبتدىء بأعمال تجريبية من ضغط سن قلم رصاص على ورقة وسؤال التلميذ عن وصف اثـــر عمله وتشبيه النقط بنقطة الوقف الخ ، الشيء الـــذي لا يوجد في الكتاب العربي .

الخـــط :

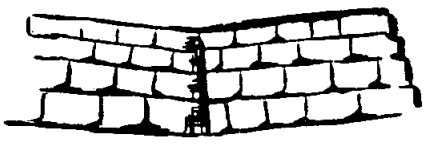

(جدار)

السلك المعدني مثلا ليس بخط ولكنـــه جســـم .

ولكننا مهما بالغنا فى سحب ذلك السلك حتى يصبح فى غاية الدقة فالناتج لايكون خطا هندسيا بل يقرب جدا منه .

النقطة :

نرى فى شكل الجدار انه اذا التقى خطان منه ، فانهما يلتقيان فى نقطة ، فالنقطة هي حد الخط وليس لها طول ولا عرض ولا ارتفاع . ويستنتج من ذلك ان :

« النقطة هي كل ما له وضع مجرد من الطول والعرض والارتفاع » .

من الممكن اعتبار نهاية كل خط او موضع تلاقي خطين كنقطة هندسية .

ملاحظة :

يقول الدرس فى الهندسة بأن « النقطة هي حد الخط » بينما الخط لا نهاية له .

1 - Le point :

En appuyant la pointe d'un crayon bien taillé ou d'une aiguille fine sur une feuille de papier, en évitant tout glissement, on marque un point.

On désigne un point par une lettre (en général majuscule d'imprimerie) que l'on place au voisinage du point de façon qu'elle soit bien visible et qu'il n'y ait pas de doute sur le point qu'on veut désigner.

Ainsi la figure 1 représente trois points désignés par les lettres A, B, C.

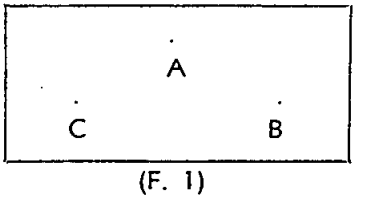

(F. 1)

2 - Ligne :

Si l'on déplace la pointe du crayon ou de l'aiguille sur le papier, sur un mur, sur un rouleau ou sur une boule, on dessine une ligne (fig. 2). Nous exprimons ce fait de la façon suivante :

Un point qui se déplace engendre une ligne

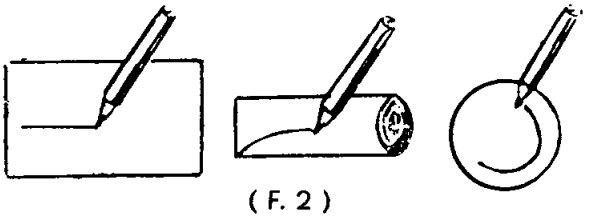

(F. 2)

Souvent une ligne est désignée par une lettre majuscule placée entre parenthèses.

Applications : etc...

وهذا كتاب عربي آخر فى نفس الموضوع :

بند 8 ــ النقطة . الاثر الذي يتركه سن قلم او دبوس على قطعة من الورق يدل على وجه التقريب على النقطة .

فالنقطة وضع هندسي مجرد عن البعد ، ليس لها طول ولا عرض ولا سمك .

وتسمى النقطة بأحد الحروف ، فنقول مثلا : النقطة (ل) أو النقطة (ب) (شكل 6) .

(شكل 6)

(ثم ينتقل الى الجسم ثم يدرس السطح ثم يأتي فى البند 11 الى الخط فيقول) :

بند 11 . سطوح الاجسام تنفصل بعضها عن بعض بفواصل نسميها خطوطا وهذه الخطوط قد تكون مستقيمة او منحنية ، تأمل متوازى المستطيلات :

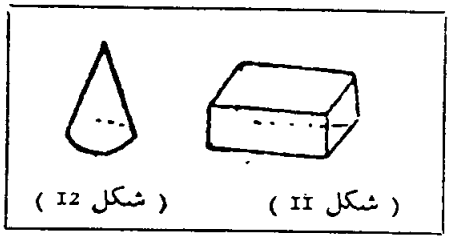

(شكل 11) (شكل 12)

(شكل 11) ان له سطوحا مستوية تتلاقى مثنى مثنى فى اثنى عشر خطا تسمى احرفه وهي خطوط مستقيمة .

اما المخروط فسطحه الجانبي سطح منحن ، وقاعدته سطح مستوى وينفصل السطحان بخط منحن على شكل محيط دائرة (شكل 12) .

فالخط اذن ينشأ عن تقاطع سطحين 2

وهو على نوعين :

1) مستقيم الخ
2) منحن الخ

3) الاثر الذي يتركه سن قلمك عندما يتحرك على ورقة هو خط وعلى ذلك يمكننا اعتبار ايضا ان الخط مسار نقطة متحركة .

خلاصة مقارنة النصوص :

في المطالعة	**النص الفرنسي** . حي بالفاظ غنية ، موح بأفكار وعواطف ، واصف بفتح آفاق الخيال ، مشوق للمطالعة والانشاء، مسل بالطرافة والتشخيص ومن الاساطير الخ ..
	النص العربي . قليل الالفاظ ، غير موح، واصف بالسرد الجاف ، غير مشوق ، غير مسل ، بسيط الفكرة ساذج الشعور الخ ...
دروس الاشياء	**النص الفرنسي** . مضبوط ، مفصل ، مشجع على الملاحظة ، موح بالتشبيه بين الاشياء المحيطة بالتلميذ ، غني بالمصطلحات الخ.
	النص العربي . غير مضبوط ، مجمل ، ليس فيه ما يحض على التبصر والملاحظة موح بالقدرة الالاهية في صنع الانسان ، قليل المصطلحات واعظ الخ .
الهندسة	**النص الفرنسي** . ممهد لتلميذ ، آخذ بيده لممارسة الدرس . مشرك اياه في توسع الدرس ، منبه اياه على الفروق، مضبوط المنطق في تسهيل وتبسيط (من النقطة الى الخط الى السطر) .
	النص العربي . غير ممهد ، غير آخذ بيد التلميذ ، غير مضبوط ، غير منطقي (من الخط الى النقطة او الى الاشكال ثم الى السطر فالنقطة .

فكرة اساسية :

ومن تأمل جيدا مقارنة انواع الكتب في اللغتين لكتشف اشياء اخرى غير هذه ولاتضحت له ماهي عليه كتبنا بصفة عامة ، من فراغ علمي وفقر فكري مما يفسر ازمة الثقافة العربية التي امتلأت صفحات مجلاتنا وجرائدنا بالاسئلة عنها والتأسف عليها . والثقافة انما هي نتيجة اختمار المعلومات والشعور والاحاسيس والعواطف والافكار داخل النفس البشرية . فاذا كانت مواد الاختمار قليلة نقص نضج اختمارها وبالتالي بقيت فطيرة . والثقافة تعبير عن ذلك الاختمار فاذا قل التعبير قلت الثقافة . وبديهي ان المعلومات والعواطف والافكار لا يعبر عنها الا باللغة . واللغة الفاظ من اسم وفعل وحرف وتراكيب تكتسب بالتعليم بمعناه العام كما ان مادتها الخام تكتسب بالمشاهدة والتحليل والتأمل والتركيب والتجربة ، وبعبارة اخرى فان اللغة تغني العقل والنفس والروح كما ان العقل والنفس والروح تغني اللغة . ولكننا اذا تعمقنا في هذا الموضوع بالنسبة الى الامر الواقع في يومنا هذا وفي الظروف الحالية التي نعيش فيها وجدنا ان اللغة هي الاداة الاساسية لكل تنمية كيفما كان نوعها والوسيلة الضرورية اللازمة لكل رقي مهما كانت درجته . وسنعود الى هذه النقطة في مقال آخر ان شاء الله !

المحادثة :

واذن فان المعلومات والعواطف والافكار التي توجد في الكتاب العربي ناقصة بالنسبة الى المعلومات والعواطف والافكار التي يحتوي عليها الكتاب الفرنسي، ولو كان هذا النقص ضئيل النسبة فحسب لما اكترثنا لذلك . ولكن هذه النسبة منخفضة انخفاضا مدهشا فوجب علينا ان نبوح بالامر وان نقرع ناقوس الخطر ، لاسيما وان المستوى منوط بهذه النسبة ، ومع استواء التعليم يستوي التقدم ومع انخفاضه يحصل التأخر .

وحقيقة الامر ليست في عدد الكلمات بل في اختيارها وفعاليتها بالنسبة الى الواقع والمفهوم والفكرة ، فان الطفل اول ما يتعلم يتعلم الحروف بواسطة اسماء ما يحيط به من الاشياء التي يعرفها . ومن المسلم به ان ما يحيط بالطفل في الوسط الحضري يختلف عما يحيط به في الوسط البدوي . والاشياء التي يعرفها طفلنا المغربي في سن السادسة كثيرة ولكنها مجسمة في ذهنه باللغة العامية . مثال ذلك في الاسماء : خيزو (جزر) كرموس (تين) شطابة (مكنسة) وفي الافعال : دار يدير (عمل يعمل) ناض ينوض (نهض ينهض) وشاف يشوف (راى او نظر) باش (لـ او كي) منين (لما او عندما) لهيه (هناك) بعكس الطفل الفرنسي الذي تكاد جل الفاظه الشفوية تطابق الفاظه المكتوبة .

وحتى نقوم لسانه منذ الخطوات الاولى ، ونجعل لهجته العامية تتقابل مع اللغة الفصيحة يجب ان نعلم طفلنا الالفاظ الفصيحة المقابلة للاسماء العامية التي في ذهنه والتي يمارسها كل يوم وذلك بالتدريج مثل : خبز ولحم وفراش وقط (لا «هر») وخيمة ودار وعين وسن لا «ناب» ولا «ضرس» ولا «قاطعة» وغزال (لا «ظبي») وبلبل (لا «هزار») .

ويجب ان تكون غايتنا اولا : امداد الطفل بوسائل التعبير ليصف ما حوله في مرحلة اولى . ثانيا : اطلاعه على ما يوجد في بلاده خارج وسطه في مرحلة ثانية .

ثالثا : اطلاعه على ما يوجد عند غيرنا من البلدان الاخرى . وبعبارة أوضح نسهر على تكوينه من حيث حاضر بلاده وحاجياتها (التكوين الوطني) ثم على تكوينه من حيث حاضر العالم الذي يعيش فيه (التكوين الانساني العالمي) حتى يتلاءم فكره الفتي مع حاجيات وطنه الصغير ، وينسجم فيما بعد مع مقتضيات وطنه الكبير وهو الانسانية جمعاء .

وأتذكر اننا في صبانا لما كنا في المدارس الفرنسية الاسلامية كما كانت تسمى آنذاك ، تعلمنا بلغة اجنبية جميع اشياء الحضارة البعيدة عن وسطنا في ذلك الزمن. وأتذكر الى يومنا هذا ، اذ ما زالت راسخة في ذاكرتي، تلك الصور باسمائها المطبوعة باللون الاحمر التي كنت اراها على جدار القسم ، وفي الكتاب الفرنسي ، من قطارات ومحطاتها واثاث اوروبي مرتب حول المدخنة في «الصالون» . والبيانو بارز في جانب اللوحة ، ومن بواخر على البحر ماخرة يتعالى بخارها في السماء ، كما اتذكر تلك الصور الخاصة بالبدو ، رجالهم على افراسهم والبنادق مرفوعة فوق رؤوسهم ، ونساؤهم جالسات أمام الخيمة في صف واحد ، كل واحدة مشتغلة بعمل من اعمال تحضير الغذاء ، هذه تعجن وتلك تفتل «الكسكس» واخرى عند الفرن تدفع بالحطب الى النار. كل هذا وانا قاطن في قعر مدينة فاس لم اكن رايت من قبل لا قطارا ولا باخرة ولا بيانو ولكن مخيلتي الفتية كانت تحلق بي في ذلك العالم البعيد الذي كان يبدو لي غريبا وشد ما كان شوقي عظيما لرؤيته والتعرف عليه والسفر اليه على متن ذلك القطار او تلك الباخرة والعزف على ذلك البيانو والحصول على اثاث تلك المنازل الجميلة والركوب على الخيل واطلاق نار الفرح من فوق صهواتها ثم الاستراحة داخل الخيمة والتمتع بطرافة حياة البادية لان الطفل يستهدف الحركة والمغامرة ويصبو الى المزيد من التعرف على كل شيء وبالخصوص على ما لايحيط به من الغريب والجديد في كل ميدان .

والتعليم اذن مرحلتان مرحلة ادماج الطفل اولا في وسطه حتى لايقتلع عنه ويكون ذلك بتسديد لغته الفصيحة منذ البدء وبث حبها في قلبه وامداده بأداة الوصف مع تمرينه على ثروة لغته حتى يستطيع التعبير عما يختلج في نفسه ، ثم بعد ذلك الاخذ بيده ورفعه الى ادراك حقائق الامور التي تحيط به وابراز سر تركيبها وقوانين حدوثها واسباب وجودها ليدرك من وراء الشيء اشياء اخرى لم يكن يشعر بوجودها من قبل وان الملاحظة والتأمل واجادتهما كفيلان بجعله يكتسب عنصر العلم الا وهو النظر الى العالم بعين جديدة مدققة فاحصة كاشفة شاكة متسائلة في آن واحد .

ووعاء العلم في التعليم هو الكتاب هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فاننا نعتبر طفلنا في ذكاء اي طفل من اطفال العالم . فاذا كان المستوى الذي يحصل عليه طفلنا باللغة الفرنسية لا بأس به فلماذا لايحصل على نفس المستوى بلغته الام ؟ واذا كانت اللغة العربية تنخر من حصة اللغة الفرنسية لفائدتها اليس بطبيعي ان يبقى المستوى في نفس الدرجة التي كان عليها باللغة الفرنسية ؟ واذا انخفض المستوى فهناك سبب وهذا السبب **هو اننا لانتعلم بلغتنا ما نتعلمه بلغة غيرنا .**

هذا هو القصد الاول الذي يجب على المشرفين على التعليم ان يقصدوه ولاينبغي بل ليس من الجد في شيء أن يرموا المعلمين بعدم الكفاءة . فلو كان هذا صحيحا لبرزت مدارس او اقسام بتعليم في المستوى اذ من المستحيل أن يكون جميع المعلمين عديمي الكفاءة دفعة واحدة في جميع مدارس البلاد لاسيما وان هؤلاء المعلمين كونهم هؤلاء المسؤولون انفسهم فأصبحوا يرمونهم اليوم بالضعف .

في دروس الاشياء والعلوم :

أما في موضوع دروس الاشياء فنقول :

ان المستوى بالنسبة الى اوروبا يجب أن يحافظ عليه . وهذا المستوى ليس مراعى في كتبنا . فيجب ان نبوئه فيها اولا ثم ان نحافظ عليه فيها ثانيا. فلم لاينعلم طفلنا بالعربية من العلوم ما يتعلمه بالفرنسية الطفل العربي او الطفل الفرنسي ؟ اذلك لان بعض العلوم خاصة بالاوروبيين وبعضها الآخر خاص بالعرب ؟ قد يمكن ان يكون ذلك صحيحا بالنسبة الى باب او بابين مثل باب الخنزير او باب الخمر ولكنه غير صحيح بالنسبة الى الابواب الاخرى . ولماذا تفصل اجزاء العين للطفل الاوروبي في الابتدائي الاول ولا تفصل بنفس الدقة للطفل العربي في نفس السنة وباضافة معلومات اخرى زائدة لاسباب منها مرض الحثار (التراكوم) مثلا الذي يفتك بمناطق الجنوب في بلداننا .

ولماذا يكاد درس العين هذا الذي يلقن في الابتدائي الاول الفرنسي لا يساويه درس العين في المتوسط الثاني العربي ؟ واذا ارجأناه الى هذا القسم الاخير افظنا منا أن الطفل الفرنسي سوف لايتقدم في دراسة العين وينتظر ان يلحق به الطفل العربي حتى يصلا الى

الشهادة الثانوية او الباكالوريا فى مستوى واحد ؟ انا لا افهم ذلك .

ولقد قارنت غير ما مرة مستوى استاذ عربي حاصل على اجازة فى العلوم الطبيعية بالعربية (بمعناها الطبيعي لا الفيزيائي !) قارنته بمستوى استاذ فرنسي حاصل على نفس الاجازة فى نفس المادة فوجدت ان هذا يفوق ذلك اضعافا مضعفة .. وان كنتم فى ريب مما قدمنا ... فقارنوا بأنفسكم بينهما يتضح لنا جميعا خطر الداء !

الهندسة :

وفى الهندسة ، لماذا يزخر الكتاب الفرنسي بالتمهيدات والتطبيقات والتواضيح البسيطة المفصلة والمنطقية معا ، فيقول بأن النقطة هي عنصر الخط يبدأ هذا بها ، ثم اذا تحركت النقطة نتج عن اثر تحركها ما يسمى بالخط الذي هو بدوره ، مهما تغير اتجاهه ، اصبح عنصر الزوايا التي هي بدورها عنصر المثلث . واذا تعددت الزوايا نتجت عن ذلك اشكال المربع والمخمس والمسدس الخ . واذا تحرك هذا الخط فى اتجاه جانبي نتج عن ذلك التحرك السطح ومركباته من هرم ومخروط ومكعب الخ . ولماذا ينحو الكتاب العربي نحوا مخالفا يؤدي الى الابهام والغموض والتعقد لاسيما وان الدرس الهندسي الذي مثلنا به خاص بتلاميذ السنة الاولى من الثانوي اي بأطفال عمرهم لايتعدى اليوم اربع عشرة سنة على اكثر تقدير ، ويبدأ بالخط واي خط ! ذلك الخط الوهمي الذي يجب أن يقدره التلميذ على جدار ويقدر ان سببه هو الفاصل بين لبناته ! ثم يقول الكتاب بأن النقطة هي ملتقى خطين من خطوط ذلك الجدار فيختم بهذا التعبير المدهش لعقل التلميذ : « هو كل وضع مجرد عن الطول والعرض والارتفاع » فأي وضع ؟ وما هو والوضع ؟ واي تجريد ؟ وما معنى التجريد ؟ ومعنى هذا كله فى الحقيقة لاشيء ! ، العدم! وقل مثل ذلك فى الكتاب الآخر الذي ينتقل من « بند » الى « بند » ويرجع ويستدرك الخ .. كل هذا مما يفسر لنا تلك الغرابة فى التفكير التي نلاحظها عند المكونين علميا بالعربية !

الخلاصة فى موضوع الكتاب المدرسي :

هذا هو الامر الواقع ! اضيف أن هذه المقارنة الموضوعية تتبعناها حتى نهاية السنة الثالثة للثانوي اي سنة الشهادة الثانوية ، شعبة شعبة ومادة مادة وصنفا صنفا ثم بعد ذلك عكفنا على طوائف الالفاظ من حيث المفهوم ومن حيث الدقة ومن حيث الحيوية ومن حيث المسايرة والتدريج والدرجان ، ولم نعرها اهتماما من حيث الغرابة اذا كانت الكلمة تؤدي معنى حديثا وتسد لنا فراغا فى اللغة ، الى غير ذلك من عمليات البحث والاحصاء المتداولة ، متفحصين انواع الكتب المقررة فى سائر الاقطار العربية للقراءة والمحفوظات والنحو والرياضيات والعلوم والتقنيات الخ .

واما المقارنة من حيث الاخراج والطباعة والتجلية والتقديم ، فنتيجتها أن الفرق شاسع جدا بين الكتب العربية والكتب الفرنسية اذ الكتاب العربي لا يلبي مقتضى المبادىء التربوية الاساسية من وضوح الحروف وشكلها وتنوعها ومن ضبط الصور والرسوم ودقتها ونصاعتها وتلوينها ومن ترتيب الصفحة وابراز فصولها وفقراتها الخ ..

فتبين لنا علميا ــ لامجال لاي شك فيه ــ ان هذا التباين العظيم بين محتوى الكتاب العربي وشكله وبين محتوى الكتاب الاوروبي وشكله ، لهو أول الاسباب فى انخفاض المستوى وعدم تقدمنا فى القضايا التعليمية والمشاكل اللغوية بصفة عامة :

اذ كيف نريد ان يكون تعليمنا فى المستوى ومحتواه ناقص بالنسبة الى هذا المستوى الذي نريده ؟.. كيف نريد أن يكون تلميذنا عالما بما لانعلمه اياه ؟ كيف نريده معبرا ونحن لانمده بوسائل التعبير ؟ ونريده واصفا ونحن لانقدم له اداة الوصف ؟ كأننا نريده ان يحسب دون ان نعلمه الحساب ! او نود ان يدافع عن نفسه فى معركة بينما نكبل يديه !

ما يعرف ابناؤنا الا ما علمناهم ! وانهم لفي المستوى الذي اردناه لهم انهم يعبرون كما علمناهم أن يعبروا لا اقل ولا اكثر ويصفون بما سمحنا لهم أن يصفوا وجعلناهم يحسبون بالارقام القليلة التي علمناها اياهم، واخيرا فانهم يدافعون كما تأتى لهم أن يدافعوا بل هم صورة واضحة لما نحن عليه ، صورة وفية مخلصة .

الكتاب المدرسي والمعلم :

وما قلناه فى تلميذنا نقوله فى معلمه حرفا بحرف ، اذ المعلم الا تلميذ انهى دراسته ، تلك الدراسة التي وضعناها له بمستواها ومحتواها ، من حيوانات ونباتات واوصاف وافعال ومعلومات واشياء الخ .. فكوناه بلغة وكتب وادوات تعليمية وبرنامج الكل ناقص واذا كان تكوينه ناقصا فاننا نحن الذين قصرنا فى

تكوينه ! واذا قورنا في تكوينه فذلك لانه نقصنا الجهاز الفني الذي يبين لنا الدرجة التي يجب ان نتمسك بها في التكوين ويمدنا بالادوات الصالحة لذلك التكوين . وهذا الجهاز الفني هو «المعهد التلقيني» Institut pédagogique الذي يوجد عند كل الامم الراقية ولا يوجد عندنا ! ووجوده حيوي بالنسبة الى الامم المتخلفة غايته تتبع رقي شؤون التعليم عند سائر الامم والسهر على أن تكون دوما في بلاده مسايرة لما هي عليه عند الامم الرائدة حتى لايحصل اي تأخر وبالتالي اي تخلف (اذا تكافأت الاوضاع) .

وان قال قائل ان هذا المعهد موجود عندنا في البلاد العربية ومع ذلك لم تتحسن أوضاع التعليم ولا مستواه قلت : وجود الجهاز لايكفي وحده ان لم توضع رهن اشارته الطاقات والوسائل الكفاة الكافية وان لم يعره المسؤولون ما يجدر به من اهتمام وما يليق به من انصات .

ولنتأمل ما جاء في التوصية 48 لوزارات التربية الوطنية المنبثقة عن الدورة 22 للمؤتمر الدولي حول التربية الوطنية المنعقد في جونيف سنة 1959 .

تصنيف الكتب المدرسية للتعليم الابتدائي ، اختيارها واستعمالها :

«يجب ان يعكس كتاب التعليم الابتدائي **التقدم** الذي حصلت عليه علوم التربية ؛ وان يتضمن المناهج المتناسبة مع **نفسية الطفل** ... وان تكون مواده معروضة **بمنطق** ومراعاة **اهتمام الطفل وقدرته الذهنية** — يجب ان يحتوي كل كتاب مدرسي ابتدائي على مجموعة من الحوادث والافكار والايحاءات مطابقة **للواقع وللعلم** مع السهر على **تجديدها يوما بعد يوم** — يجب ان تعطى عناية خاصة **للمفردات والاسلوب** حتى يكون تقدم التلميذ **تدريجيا** لا مبعثرا وغير منظم — يجب ان يكون لدى **الهيئة المختصة** بشؤون الكتاب المدرسي قائمات الكتب المختارة الصالحة التي «توجد عند **الامم الراقية** حتى يتسنى لها ان تقارن بين ما يصدر في بلادها وبين ما يصدر عند غيرها» وذلك **للمحافظة على المستوى** — الكتاب المدرسي هو الكتاب الاول **الذي يدخل الاسرة** — يجب ان يكون الكتاب المدرسي **في يد كل تلميذ** — في البلدان التي فيها حرية الطبع يجب بصفة خاصة ان **يتفقد المسؤولون محتوى الكتاب المدرسي وقيمته العلمية** بالرجوع الى **الاختصاصيين في الموضوع** وطلب رايهم فيه ويحسن ان يجرب نوع من الكتاب على نطاق ضيق قبل اقراره حتى تتبين **صلاحية نشره** على نطاق واسع — يجب ان يتوفر في الكتاب المدرسي على تدريج العلوم **من قسم الى قسم** الخ ...

يتبع